القاعدة السادسة والأربعون:

ما أمر الله به في كتابه: إما أن يوجَّه إلى من لم يدخل فيه، فهذا أمر له بالدخول فيه. وإما أن يوجَّه لمن دخل فيه، فهذا أمره به ليصحح ما وُجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد منه.

التعليق

هذه القاعدة مهمة: إذا وجّه الخطاب بشيء إلى شخص لم يتّصف به، فهو أمر بفعله وإيجاده؛ مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فليس كل الناس عابدين لله، فيكون الخطاب هنا موجّهاً حتى إلى الكفار، فيكون أمراً بفعل هذا الشيء. أما إذا وجه الأمر إلى من تلبس به واتصف به، فهو أمر بتحقيقه، وتكميل ما نقص منه؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] وما أشبه ذلك. وهذه القاعدة مهمة؛ لأنه أحياناً يرد على الإنسان: كيف يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وهو يأتي بشعائر الإسلام كلها؟ فيكون أمراً بإتمام ما نقص منه، وإكمال ما كان موجوداً منه.

❑ ❑ ❑

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية؛ أصولها وفروعها، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾

[النساء: ٤٧]، من القسم الأول. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦]، من الثاني والثالث، فإنه أمرهم بما يصحِّح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، والنهي عما يفسدها وينقصها؛ وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان؛ أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد ومنقص لذلك العمل، وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربّهم الهداية إلى الصراط المستقيم، والله قد هداهم للإسلام، جوابه ما تضمَّنته هذه القاعدة، ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل!! فافهم هذا الأصل الجليل النافع الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزاً، وهو في غاية اليسر والوضوح.

التعليق

المؤمن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أنت قد هديت، ولكن بقي عليك تكميل؛ فما أنا فاعله يحتاج إلى تكميل وتحسين وإكمال فيما نقص مني، فأنت مثلاً تصلي الصلوات، لكن هل تأتي بالرواتب كلها؟ قد لا تأتي بها، تصلي الصلوات، لكن هل الصلوات كاملة؟ قد تنصرف من صلاتك ولم يُكتب لك منها إلا العشر مثلاً؟ فهذه القاعدة ـ كما قال شيخنا ـ رحمه الله ـ قاعدة مهمة جداً، يزول بها إشكال كثير، ويستحضر الإنسان بها كيف يدعو الله جلّ وعلا، إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

القاعدة السابعة والأربعون:

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها، وذلك الحكم لا يختص بها بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام.

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب، وأمثلة هذه القاعدة كثيرة، منها: لما ذكر الله المنافقين وذمّهم واستثنى منهم التائبين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن؛ ولئلا يُظَن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥١]، لم يقل: «وأعتدنا لهم» للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ٦٤]، أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤].

التعليق

وهذه أيضاً تقع كثيراً في مقام الإظهار في موضع الإضمار؛ لأن الله تعالى أحياناً يظهر في موضع الضمير ليفيد الحكم بالعموم، فالآيات التي ذكر المؤلف واضحة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لو قال: وسوف يؤتيهم لتوهَّم واهم أن هذا الأجر العظيم لهؤلاء فقط! ولكنه قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فأظهر في موضع الإضمار، وفائدته أن الحكم عام لهم ولغيرهم. وهناك فائدة أخرى؛ أن هذا الأجر ثبت من أجل الإيمان، فكل مؤمن، وإن لم يسبق له نفاق، فإن الله تعالى يؤتيه أجراً عظيماً. والمهم أن هذه القاعدة، كما قال الشيخ ـ رحمه الله ـ قاعدة مهمة جداً، وهي أن الله تعالى يحكم بحكم عام، يشمل ما سيق من أجله، وما لم يذكر، وهذا من بدائع القرآن، وجمعه، وأنه من جوامع الكلم.

القاعدة الثامنة والأربعون:

متى علَّق الله علمه بالأمور بعد وجودها كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

وذلك أنه تقرَّر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن، والجليّات والخفيّات، والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال، وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع كذا، أو قدَّر كذا؛ ليعلم كذا. فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وأما علمه بأعمال العباد، وما هم عاملون قبل أن يعملوا؛ فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء؛ لأنه إنما يُجازى على ما وُجد من الأعمال. وعلى هذا الأصل نَزِّل ما يَرِدُ عليك من الآيات؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]، وما أشبه هذه الآيات كلها على هذا الأصل.

التعليق

نحن نعلم علم اليقين أن الله بكل شيء عليم، في المستقبل، وفي الماضي، وفي الحاضر. وهذا لا إشكال فيه، ولكن ترد آيات توجب إشكالاً، مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، أليس الله قد علم ذلك من قبل؟ بلى، ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، أليس الله قد علم ذلك من قبل؟ بلى. وأمثال ذلك كثير. وهذا يوجب الإشكال على الإنسان، فأراد الشيخ ـ رحمه الله ـ أن يبين الجواب، فقال: إن العلم علمان: علم لا يترتب عليه الجزاء، وعلم يترتب عليه الجزاء؛ فعلم الله تعالى بأن هذا الشيء سيكون، لا يترتب عليه الجزاء. وكيف يترتب الجزاء على مَنْ لم يؤمر ولم ينه؟! وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فهذا علم بما يكون ليجازي عليه، وهذا واضح. وأما قول بعض أهل العلم: إلا لنعلم علم ظهور، فهذه العبارة على إطلاقها فيها نظر؛ لأن علم الله بالشيء قبل وقوعه علم به ظاهراً وباطناً. لكن إن أرادوا بعلم الظهور أن تعلق علم الله تعالى بهذا الشيء قبل وقوعه تعلق بأن الشيء سيوجد، وتعلقه به بعد الوجود تعلق بأنه وُجد، يعني: علم الله السابق على الوقوع علم بأنه سيوجد، وعلم الله بعد الوقوع علم بأنه وُجد، هذا صحيح. وهذا أيضاً فرقٌ ثانٍ، بأن الله إذا علق العلم بموجود، فهو علم بأنه وُجد، وإذا تعلق علمه بما سيوجد، فهو علم بأنه سيوجد، لا بأنه وُجد؛ لأنه لو كان علم بأنه وُجد، صار على خلاف الموجود.

القاعدة التاسعة والأربعون:

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى.

وهذا من لطفه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، **فنهاهم عن التمني الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال وبلسان الحال؛ ولما سأل موسى عليه السلام رؤية ربِّه حين سمع كلامه ومنعه الله منها، سلَّاه بما أعطاه من الخير العظيم، قال:** ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، **وقوله تعالى:** ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، **وقوله:** ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]، **وفي هذا المعنى آيات كثيرة.**

التعليق

وهذا أمر يعرف الإنسان به لطف الله سبحانه وتعالى، وإحسانه إلى خلقه؛ أنه إذا منعهم من شيء فتح لهم أبواباً خيراً منه، فهنا قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعني: من العلم، والمال، والجاه، والرئاسة وغير ذلك، فلا تتمنَّ أن يكون

لك ما أعطى الله أخاك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: ولا تتمنوا مثل ما فضل الله؛ إذ إن الإنسان يجوز أن يتمنى مثل ما فضل الله به بعض عباده. يجوز أن تتمنى مثل علم ابن تيمية ـ مثلاً ـ، يقال إن رجلاً كان يطوف بالبيت، ويقول: اللّهمّ إني أسألك فقهاً كفقه شيخ الإسلام، ونحواً كنحو ابن هشام! هذا جائز، لكن لو قلت: اللّهمّ ارزقني فقه شيخ الإسلام، يعني: اجعله لي دونه، هذا لا يجوز. إذاً، أقول: أسأل الله من فضله، اللّهمّ إني أسألك أن تعطيني مثل ما أعطيت هذا الرجل؛ كقولنا: «اللّهمّ صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم»، فهذا من ألطف القواعد؛ كما قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ.

كذلك أيضاً: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ ربما يندم الإنسان على نسخ الله تعالى بعض الأحكام، أو بعض الآيات، أو يندم على تنسيته إياها؛ كما قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧]. إذا ندم الإنسان، نقول: لا تندم يا أخي! إن الله إذا نسخ آية، أو أنساها، أتى بخيرٍ منها، أو مثلها. وبدأ بالخيرية أولاً، فقال: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾. والفائدة من النسخ إذا كانت الآية الناسخة مثل الأولى، اختبار العبد؛ هل يكون قابلاً، راضياً أو لا؟ وانظر إلى نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة! العمل واحد، والاتجاه واحد، أنت لا يهمك أن تتجه إلى المشرق أو إلى المغرب، أو إلى الشمال أو إلى الجنوب؛ لكن الفائدة هي امتحان الناس. ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]،

فإن بعض الناس إذا رأى النسخ ـ والعياذ بالله ـ ارتدّ! وقال: كيف يبدّل الشرع؟ فالحاصل، أني أقول: إن الله تعالى إذا منع العباد شيئاً فتح لهم أبواباً كثيرة مثله، أو خيراً منه.

وعلى هذا نقول: من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه. أيضاً، في قصة موسى عليه السلام، لما كلّمه الله اشتاق إلى ربِّه أن يراه؛ لأن رؤية المتكلم ليست كسماع كلامه، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم، إذا خاطبهم النبيّ عليه الصلاة والسلام، استقبلوه بوجوههم حتى يروه، لو حدثك أحد بحديث من وراء الجدار، تستمع لقوله لكن ليس كما إذا رأيته، أنت الآن تسمع في المسجل كلام الرجل بنفسك، لكن ليس كحضورك عنده وهو يلقي الكلام، فبينهما فرق عظيم؛ فموسى عليه السلام لما سمع كلام الله اشتاق لرؤية الله عز وجل، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ هذا مستحيل؛ لأن نقص الإنسان في الدنيا لا يمكنه أن يتحمل رؤية الله تعالى. ثم ضرب الله له مثلاً، فقال: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، فتجلّى الله سبحانه للجبل، فاندكّ الجبل! جبل أصم، حجر صلب، لما تجلى الله له جعله دكاً، وصار تراباً! لما رأى موسى هذا الأمر؛ خرّ صعقاً، فلما أفاق قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فما سألتك الرؤيا عن شكّ، ولكن عن شوق، ثم قال الله له: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾، ولا تطلب ما لم تؤت، ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هنا عُوِّض عن الرؤية، أو سُلِّي عن الرؤية بقوله: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾. وهكذا

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، يعني: لا تهنوا وتضعفوا في طلب الكفار؛ لأن هذا الذي يصيبكم يصيبهم، هم مثلكم بشر؛ لكن الفارق: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وهذا لا شك أنه يسلِّي المرء، ويوجب له النشاط في تنفيذ الأمر.

القاعدة الخمسون:

آيات الرسول هي التي يبديها الباري ويبتديها، وأما ما أبداه المكذّبون له واقترحوه فليست آيات، وإنما هي تعنُّتات وتعجيزات.

وبهذا يُعرف الفرق بينها وبين الآيات، وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل، وعلى صدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلّت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر. وأما ما آتى الله محمد ﷺ من الآيات، فهي لا تُحدّ ولا تُعدّ من كثرتها وقوتها ووضوحها ولله الحمد، فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر؛ فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعيِّنونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطَّنوا أنفسهم على دينهم الباطل، وعدم اتباع النبيّ ﷺ، فلما دعاهم إلى الإيمان، وأراهم شواهد الآيات؛ أرادوا أن يبرِّروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية، والآية الفلانية، إن كنت صادقاً وإن لم تأتِ بذلك فلا نصدّقك!! فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف؛ ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا؛ لأنهم وطّنوا أنفسهم على الرضى بدينهم، وعرفوا الحق ورفضوه. وأيضاً، فهذا من جهلهم في الحال والمآل. أما الحال: فإن

هذه الآيات التي تُقترح وتُعيَّن جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عُوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزماً لا تردّد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدّقوا، وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم؛ فلو جاءتهم لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذِّبين في آيات كثيرة جداً؛ كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠].

التعليق

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٤] إلى آخره؛ فبيّن الله عز وجل أنهم لم يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. وبهذا نعرف مراد المؤلف في الكتاب، من أول القاعدة؛ حيث قال: إن آيات الرسول هي التي يبديها الباري ويبتديها. وأما ما أبداه المكذّبون واقترحوه، فليست بآية مرادة، وأن عدم وجودها لا يدل على عدم آيات الأنبياء، وإلا لو اقترحوا آية، وجاء بها الرسول، لقلنا إنها آية. لكن مراده أن

الآيات التي اقترحوها إذا لم تأت، لا تدل على أن الرسول ليس بحق. أما لو اقترحوا آية، وجاء بها، فإنها لا شكّ آية؛ فكلام المؤلف ـ رحمه الله ـ، يريد به الأمر المخالف. فالآيات التي جاءت بها الرسل ابتداء، واضح أنها آيات. والآيات التي اقتُرحت عليهم، تخلُّفها لا يعني أنهم غير صادقين، لكن إذا وُجدت فهي دليل على صدقهم أيضاً؛ فمثلاً: اقترح قوم صالح على صالح آية، فجاء بالناقة. واقترحوا على النبيّ ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر.

❑ ❑ ❑

... **وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾** [الأنعام: ١١١] **إلى آخرها.**

وأيضاً إذا تدبَّرت الاقتراحات التي عيَّنوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي لو فُرض الإتيان تكون شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب،...

التعليق

هذا وجه مهم جداً، لو جاءت الآيات التي اقترحوها صار إيمانهم ليس إيماناً بالغيب؛ بل هو إيمان بالمشاهدة والواقع. حينئذ، لا ينفعهم؛ ولهذا، فالغالب أنه إذا أتت الرسل بالآيات المقترحة، ولم يؤمن المقترحون، الغالب أنهم يهلكون، وأن العذاب يكون مقارناً لها، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. فالحاصل: أن الآيات المقترحة إذا جاءت

موافقة لطبق ما اقترحوه، صار هذا الإيمان بالرسول إيماناً بالمشاهدة؛ لأن هذا مثل الأمارة التي يجعلها الإنسان لشخص، كأن أقول: إذا وجدت السيارة عند الباب فأنا في البيت، فإذا جاء ووجد السيارة عند الباب؛ علم أني في البيت. هذا إيمان مشاهدة، لا غيب.

❑ ❑ ❑

... فكما أنه المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم وحقوقهم، وأنه لا حكم إلا حكمه، وأن من قال: «ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا»، فهو متجرئ على الله، متوثب على حرمات الله وأحكامه، فكذلك براهين أحكامه لا يتولَّاها إلا هو، فمن اقترح شيئاً من عنده فقد ادّعى مشاركة الله في حكمه ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

التعليق

هذا أيضاً مهم جداً، أن الإنسان إذا اقترح سبيلاً غير سبيل الله، أو حكماً غير حكم الله، أو ما أشبه ذلك، فإنه منازع لله تعالى في حكمه، وفي طريق هدايته لخلقه؛ لو قال مثلاً: ينبغي أن يوزع الصوم على كل شهر ثلاثة أيام، ويكون ستة وثلاثين يوماً، بعد أن كان ثلاثين يوماً، ولو كان هكذا؛ لكان أيسر على الناس، وأسهل، وأكثر! نقول: إذا قلت ذلك، فقد نازعت الله تعالى في شرعه، وظلمت نفسك. فإن الله تعالى أحكم وأعلم بما يصلح عباده من ذلك الذي يقترح آية على الرسل؛ ائتوا بكذا وكذا، ويقول: إن هذه

الآيات التي أتيتم بها لا تكفي في إقامة البرهان على أنكم رسل، فكان ينبغي أن تأتوا بالآيات الفلانية التي اقترحناها! وهذا فيه جراءة على الله جلّ وعلا. والحاصل: أنه يجب علينا أن نؤمن بالآيات التي جاءت بها الرسل؛ سواء كانت موافقة لما اقترح عليهم، أم جاءت ابتداء لم تقترح. ونقول: إن الآية حقيقة هي التي جاءت ابتداء. أما ما جاءت جواباً لاقتراح، فهي في الحقيقة ـ كما قال الشيخ ـ كالإيمان بالشهادة، وليست كالإيمان بالغيب.

القاعدة الحادية والخمسون:

كل ما ورد في القرآن الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الدّاعين، تناول دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة دعاء المسألة فقط، ولا يظنّون دخول جميع العبادات في الدعاء، ويدل على عموم ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: أستجب طلبكم، وأتقبّل عملكم،...

التعليق

أفادنا المؤلف ـ رحمه الله ـ، في هذه القاعدة أن الدعاء؛ سواء كان أمراً، أو نهياً، أو ثناء، يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة؛ فقولك: اللّهمّ اغفر لي؛ دعاء مسألة. وصلاتك ليغفر الله لك؛ دعاء عبادة. وكما قال الشيخ ـ رحمه الله ـ: أكثر الناس يظنون أن الدعاء إنما هو دعاء المسألة، والأمر ليس كذلك؛ بل هو شامل لدعاء المسألة ودعاء العبادة؛ لأن العابد حقيقة أمره وحاله أنه يدعو الله، لكن بلسان الحال؛ لأنك لو سألت أي إنسان يصلي، أو يصوم، أو يزكّي، أو يحج، ماذا تريد؟ لقال: أريد مغفرة الله. إذاً، هو قد سأل الله بحاله، وهذا وجه كون العبادة دعاء.

❑ ❑ ❑

... ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فسمّى ذلك عبادة؛ وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسؤوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربّه القَبول، والثواب، ومغفرة ذنوبه؛ بلسان الحال، فلو سألته ما قَصْدك بصلاتك، وصيامك، وحجك، وقيامك بحق الله، وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقاً: بأن قصدي من ذلك رضى ربي، ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه؛ ولهذا كانت هذه النية شرطاً لصحة الأعمال وكمالها، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، أي: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البرّ والطاعة.

وقد يُقيد أحياناً بدعاء الطلب؛ كقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢]، فيدخل فيه دعاء الطلب؛ فإنه لا يزال ملحاً بلسانه، سائلاً دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة؛ فإن قلبه في هذه الحال راجياً طامعاً، منقطعاً عن غير الله، عالماً أنه لا يكشف السوء إلا الله، وهذا دعاء عبادة.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، يدخل فيه الأمران؛ فكما أن مِن كمال دعاء الطلب كثرة التضرع، والإلحاح، وإظهار الفقر، والمسكنة، وإخفاؤه ذلك، وإخلاصه؛ فكذلك دعاء العبادة، لا تتمّ العبادة وتكمل إلا بالمداومة عليها، ومقارنته الخشوع والخضوع، وإخفائها، وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فإن الرغبة والرهبة

وصْفٌ لهم إذا طلبوا وسألوا، ووصْفٌ لهم إذا تعبّدوا وتقرَّبوا بأعمال الخير والقُرَب.

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، **وقوله:** ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] **يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله، فهو مشرك كافر؛ فكذلك من عبد مع الله غيره، فهو مشرك كافر...**

التعليق

من طلب من غير الله حاجة يقدر عليها المطلوب، فإن ذلك ليس بشرك. فلو قلت لرجل: أعنّي على حمل متاعي على سيارتي، لم يكن هذا شرك. لكن لو قلت لرجل: ارزقني ولداً ذكراً، صار ذلك شركاً. ووجهه واضح؛ لأنه سأل غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، فهو مثل مَنْ عبد غير الله؛ لأن العبادة لا تصلح إلا لله، والدعاء بما لا يقدر عليه إلا الله، لا يصلح إلا لله عز وجل.

إذاً مَنْ طلب من مخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله، فهو مشرك كافر؛ كما أن من عبد غير الله فهو مشرك كافر، ومن طلب من مخلوق أمراً يقدر عليه فهو غير مشرك؛ ولكنه من باب الجائز، وليس من باب الكمال، فالكمال أن لا تسأل مخلوقاً شيئاً. وكان من جملة ما بايع عليه النبيّ ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان الرجل يسقط عصاه من بعيره، فينزل هو بنفسه ويأخذ العصا، ويركب[1].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٣).

وأما الجهل، فإن كان الإنسان جاهلاً جهلاً لا تفريط فيه، فإنه معذور؛ والتفريط أن يكون قد بلغه العلم واستدل بقوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. لأن بعض الناس يبلغه علم عن هذا الشيء المحرم، فيكون من جنس النعامة، تدسّ رأسها في الرمل، لأجل ألا يراها الصياد! يقال له: يا أخي، اسأل العلماء فهذا حرام. فيقول: لا ما أنا بسائل، أخشى أن أسأل، فيقال: هذا حرام! ثم يتلو هذه الآية: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وقد نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله. وإن كان في كلام الثاني في بعض المواضع ما يدل على أنه لا يعذر بالجهل في أصول الدين، ولكن كلامه الأول أصح؛ أنه يعذر، ولكن قد يكون الإنسان مفرطاً في بعض المسائل، فلا يعذر من هذه الناحية.

❑ ❑ ❑

... ومثله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، **كل هذا يدخل فيه الأمران.**

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، **يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة. أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الرحيم الغفور، وحصول الرزق باسم الرزّاق، وهكذا.**

التعليق

إذن: معنى ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، أي: اجعلوها وسيلة لحصول مطلوب، ووسيلة الشيء تناسبه، فعندما تسأل المغفرة تأتي باسم الغفور، فتقول: يا غفور، أو تقول: اللّهمّ اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم. وعندما تسأل الرزق، تقول: اللّهمّ يا رزاق ارزقني، أو تقول: اللّهمّ ارزقني، فإنك الرزاق ذو القوة المتين، وهكذا. ولا ينبغي أن تقول ـ مثلاً ـ: اللّهمّ يا شديد العقاب اغفر لي؛ لأن هذا غير مناسب. كيف تسأل المغفرة باسم يقتضي العقوبة؟! هذا يتنافى مع الأدب.

❑ ❑ ❑

وأما دعاء العبادة: فهو التعبّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيَفْهم أولاً معنى ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، ويمتلئ قلبه منه؛ فالأسماء الدالة على العظمة، والجلال، والكبرياء؛ تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله تعالى، والأسماء الدالة على الرحمة، والفضل، والإحسان؛ تملأ القلب طمعاً في فضل الله، ورجاءً لرَوْحِهِ ورحمته، والأسماء الدالة على الوِدادَ، والحب، والكمال؛ تملأ القلب محبة ووِداداً وتألّهاً وإنابة لله تعالى، والأسماء الدالّة على سِعة علمه ولطيف خبره؛ توجب للعبد مراقبة الله تعالى، والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجلّ وصف يتّصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرِّن نفسه عليها حتى تنجذب دواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية؛ فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته، ومحبته، والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الدعاء الموجود في القرآن يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، ما لم يقيد بدعاء المسألة فيكون للمسألة مثل قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١١]، المراد به دعاء المسألة، وإلا فالأصل أنه يشمل هذا وهذا. وقد بيّن المؤلف ـ رحمه الله ـ، كيفية دعاء الله عز وجل بأسمائه الحسنى، وأنه يدعوه بها في دعاء المسألة وفي دعاء العبادة، وكلاهما لا بدّ منه؛ من لم يعبد الله فإنه ليس بمسلم، ومن عبد الله ودعا غيره، فليس بمسلم.

القاعدة الثانية والخمسون:

إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية والعملية محل.

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن، وأرشد إليها في مواضع كثيرة؛ وذلك أنه من المعلوم أن محل المعارضات، وموضع الاستشكالات، وموضع التوقفات، ووقت المشاورات، إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات، فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح، فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واضحاً، وقد تعيَّنت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارِض هنا لا يُلتفت لاعتراضاته؛ لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يعني: وإذا تبين هذا من هذا لم يبقى للإكراه محل؛ لأن الإكراه إنما يكون على أمرٍ فيه مصلحة خفية. فأما أمر قد اتضح أن مصالح الدارين مربوطة به، ومتعلِّقة به؛ فأي داعٍ للإكراه، وأي موجب له؟

التعليق

إذن: فقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ خبر على بابه، وليس نهياً. ليس المعنى: لا تكرهوا على الدين، بل المعنى: أنه لا محل للإكراه في الدين؛ لأنه قد تبيّن الرشد من الغيّ. وإذا تبيّن، فإن

الإنسان لا يُكره؛ لأن كل عاقل تبيّن له الرشد من الغي، فإنه سيتبع الرشد، فلا يُكره عليه. هذا هو المعنى الذي يتبادر من الآية الكريمة، كما شرحه الشيخ ـ رحمه الله ـ، وإن كان بعض العلماء يقول: إن قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾، أي: لا تُكرهوا أحداً على الدين؛ لأنه لا يكره أحد على دين الله؛ فإما أن يدين لله عز وجل، وإما أن يدين للطاغوت ويؤدي الجزية. لكن الآية كغيرها من الآيات، لا يحمل الخبر على النهي إلا بدليل، وإلا فإن الأصل أن يبقى الكلام على ظاهره؛ النفي للنفي، والنهي للنهي. فإذا كان الأمر واضحاً، فلا ينبغي أن يحرّف الكلام عن ظاهره. وليس المعنيان متلازمين، إذا قلنا: إنها للنهي؛ صار معناها: أننا لا نكره أحداً على الدين، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. أما إذا كانت خبراً، فإنه مسكوت عن الإكراه على الدين، ويعرف من أدلة أخرى.

❑ ❑ ❑

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]**، أي: هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقِّيته، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ كقوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾** [الأنفال: ٤٢]**، وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾** [آل عمران: ١٥٩]**، أي: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعيّنت مصلحته، وظهر وجوبه؛ فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾** [آل عمران: ١٥٩].

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي

﴿ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]، **أي: فكل من جادل في الحق بعدما تبين علمه أو طريق عمله، فإنه غالط شرعاً وعقلاً. وقال تعالى:** ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، **فلامهم على عدم التزام الأكل مما ذُكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم، وهو أنه تعالى فصَّل لعباده كل ما حرّم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.**

التعليق

وفي قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، دليل على أن ما سكت عنه ليس حراماً، ودليل على أن المحرّمات مفصّلات مبيّنات. فإذا كان مبيّناً، ولم يذكر منه ما ذكر اسم الله عليه، فإن ما ذُكر اسم الله عليه يكون حلالاً، وعلى هذا فنقول: الأصل فيما سكت عنه الحلّ؛ كما قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**وما سكت عنه، فهو عفو**»[1].

❑ ❑ ❑

ولما ذكر تعالى الآيات الدالّة على وجوب الإيمان وبَّخ ولامَ المتوقفين عنه بعد البيان، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠ ـ ٢١]. **ولما بيّن جلالة القرآن، وأنه أعلى الكلام وأصدقه وأنفعه؛ قال تعالى:** ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

(١) أخرجه البزار (١٢٣)، وقال: إسناده صالح؛ والحاكم (٢/ ٣٧٥) وقال: صحيح الإسناد.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. **ولما ذكر عظيم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى:** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٣]، **وقال تعالى:** ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]؛ **وكذلك في آيات كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام، وإزالة الشُّبَه كلها؛ انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً.**

التعليق

هذه القاعدة تدور على أنه متى اتضح الشيء؛ سواء كان حكماً عملياً، أو كان خبراً علمياً، فإنه لا وجه للمجادلة فيه؛ لأنه واضح. وإنما يجادل، ويتثبّت، ويسأل عن الأمر المشكل الذي يحتاج إلى بيان. فأما ما كان بيّناً واضحاً، فإنه لا تجوز المجادلة فيه، وينكر على من جادل ويذمّ؛ كما في الآيات التي ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ. وعليه، فكل مَن جادل في دين الله، فقد جادل بغير حق؛ لأن الدين واضح بيِّن. قد بيَّن الله سبحانه وتعالى الرشد من الغيّ، وفرّق بين الحق والباطل، وفرّق بين أولياء الله وأعداء الله، فلا يمكن بعد هذا أن يقع جدال أو إشكال.

من قواعد القرآن: أنه يبيِّن أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبيِّن مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من مننه وإحسانه، وأنها لا تنقص الأجر شيئاً.

وهذه القاعدة تبيِّن من لطف الله، وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة؛ ما هو أثرٌ عظيم من آثار تعريفاته، ونفحة عظيمة من نفحاته، وأنه أرحم الراحمين؛ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فبيّن تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها، وكثرة فوائدها العامة والخاصة، أنه فرضها على العباد وإنْ شقّت عليهم، وكرهتها نفوسهم، لِمَا فيها من التعرض للأخطار، وتلف النفوس والأموال، ولكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشيء؛ بل هي خيرٌ محض، وإحسان صِرف من الله على عباده، حيث قيَّض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل لولاها لم يكونوا واصليها. وقال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ -

١٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فكلَّما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات ـ لقوة الداعي إليها ـ وفي الصبر على المصيبات؛ كان الأجر أعظم، والثواب أكثر.

وقال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، فذكر منَّته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي جعلها الله تعالى مسهِّلة للعبادة، مزيل لمشقّتها، محصِّلة لثمراتها. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلِّها أنه ييسر لهم العبادات، ويهوِّن عليهم مشقة القُرُبات، وأنه ييسرهم للخير، ويعصمهم من الشر بأيسر عمل. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، أي: لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها. وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوق حلاوة الطاعات، واستحلاء المشقات في رضى الله تعالى؛ فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهّل الله له طريق العبادة وهوَّنها حمد الله وشكر، وإن شقّت على النفوس صبر واحتسب الخير في عنائه ومشقته، ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الأجر على قدر المشقة، وقد دلّ عليها قوله ﷺ لعائشة: «**إن أجرك على قدر نَصَبك**»[١] نصبك أي: مشقتك.

وفيها أيضاً: بيان المنّة على العباد بتسهيل الطاعات، وأن تسهيل الطاعات من آثار رحمته. وعجباً لبعض الناس أن يسلكوا بأنفسهم مسلك الصعوبة والتعسير في أمور العبادة، وهذا تبرّأ منه النبيّ عليه الصلاة والسلام، فإن قوماً في عهد الرسول ﷺ اجتمعوا واتفقوا على أن يصوم أحدهم ولا يفطر، والآخر يقوم ولا ينام، والثالث لا يتزوج النساء، والرابع لا يأكل اللحم؛ فخطب النبيّ عليه الصلاة والسلام، وأخبرهم بأنه يصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويتزوج النساء، وأن مَن رغب عن سنّته، فليس منه[٢]. فالذين يسلكون طرق التعسير مع وجود التسهيل أخطؤوا على أنفسهم؛ لو أن رجلاً قال: أنا لا أريد أن أركب سيارة فيها مكيِّف! بل أركب سيارة معيبة، ليس فيها مكيف ولا مظلة، وأذهب إلى الحج عليها! هذا خطأ، أن يذهب ويتعب نفسه، ويترك نعمة الله على الإنسان. نعم، إذا كانت

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب (١٦٩٥)؛ ومسلم في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١)، بلفظ: «ولكنها على قدر نصبك» أو قال: «نفقتك».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)؛ ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١).

العبادة لا يمكن أن تؤدى إلا بمشقة، هذا شيءٌ آخر، هذا من الله وليس بإرادتك. أما أن يكون أمامك طريقان: سهل وصعب، فتذهب إلى الصعب، فهذا ليس من شريعة الله، يقول العامة أول ما ظهرت السيارات: إن الحج على الإبل أجره كامل، وعلى السيارات نصف الأجر، وعلى الطيارات ربع الأجر! ويمكن يجيء شيء أسهل من الطيارات يكون على الثمن؟! هذا غير صحيح، بل نقول: إن هذا من نعمة الله على العبد. صحيح أن الرسول ﷺ نهى عن كثرة الإرفاه، يعني: لا ينبغي للإنسان أن ينغمس في الترفّه حتى ينسى الخشونة، فكان ينهى عن كثرة الإرفاه، ويأمر بالاحتفاء أحياناً[1] وليس دائماً. يعني: ينبغي لنا أحياناً أن نمشي حفاة، حتى لو أن الناس شهروا بنا وانتقدوا هذا الشيء.

فنحن ما دام الله أنعم علينا، فإنه ينبغي لنا أن نسلك بأنفسنا التيسير. فإذا كان لا بد من العسر في أداء العبادة، فإن الأجر على حسبه. لو ذهبت مثلاً إلى صلاة الجماعة في ليلةٍ باردة، وصار عليك مشقة، نقول: لا بأس بهذا، هذا لك فيه أجر، ومن الرباط الذي يرفع الله به الدرجات، ويمحو به الخطايا.

إسباغ الوضوء على المكاره. وما حصل لك من المشقة، فلك فيه أجر، ولو دار الأمر بين أن تسخن الماء، وأن تتوضأ به بارداً، فالتسخين أوْلى. ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله: يكره أن يتوضأ الإنسان بما اشتدّ حرّه أو برده، وعلّلوا ذلك بأنه يمنع كمال الطهارة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الترجل (٤١٦٠).

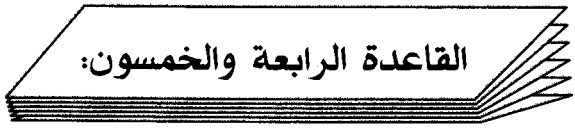

كثيراً ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة.

وذلك أن الله خلق الإنسان وركَّب فيه القوى من السمع، والبصر، والفؤاد، وغيرها؛ ليعرف ربّه، ويقوم بحقّه، فهذا المقصود منها. وبوجود ما خُلقت له تكمل ويكمل صاحبها، وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من فقدها، فإنها حجة الله على عباده، ونعمته التي توجَد بها مصالح الدين والدنيا، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها، أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خُلقت له؛ ولهذا كثيراً ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة من أصناف الكفار والمنافقين؛ كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فأخبر أن صورها موجودة؛ ولكن فوائدها مفقودة، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]، فأثبت لهم الكفر من كل وجه، فلم يكن دعواهم الإيمان ببعض من يقولون: آمنا به من الكتب والرسل بموجب لهم الدخول بالإيمان؛ لأن إيمانهم بهم مفقودة فائدته حيث كذّبوهم في رسالة محمد ﷺ وغيره من الرسل الذين لم يؤمنوا بهم، وحيث إنهم أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم من الطريق الذي أثبتوا به رسالة من ادّعوا الإيمان به؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، لمّا كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان، وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته، ويشبه هذا ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفروض على الإيمان؛ كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]؛ وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي أداء الفرائض والواجبات، ويقتضي اجتناب المحرّمات، فما لم يحصل ذلك فهو إلى الآن لم يتم ولم يتحقق، فإذا وجدت هذه الأمور تحقق؛ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد

لكتب الله ورسله؛ قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]. **ونظير ذلك قول موسى عليه السلام، لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾** [البقرة: ٦٧]؛ **فكما أن فَقْد العلم جهل، ففَقْد العمل به جهلٌ قبيح.**

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الله تعالى قد ينفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا واقع في الكتاب والسنّة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال الله تعالى في آيات كثيرة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وغير ذلك، وهم عندهم علم، وعندهم عقل، ولكن لما لم ينتفعوا به؛ صار وجوده كعدمه. وقال النبيّ ﷺ: **«لا صلاة بحضرة طعام»**[1]، مع أن الصلاة توجد، ولو بحضرة الطعام؛ لكنه نفاها لانتفاء فائدتها وثمرتها؛ لأن من يدافع الأخبثين أو يحضره طعام يشتاق إليه، فإنه سوف يصلي وقلبه معلّق بهذا الشيء، منشغل بمدافعته، وتكون صلاته كأنها لا صلاة، إذاً من هذه القاعدة نأخذ مضمونها: إن الشيء قد يُنفى لانتفاء حقيقته، وهذا هو الأصل، وقد يُنفى لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا كثير وإن كان خلاف الأصل، لكن ما لا ينتفع به فوجوده كالعدم، بل إن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام (٥٦٠).

وجوده أضرّ، فإن من لا يسمع إطلاقاً، خيرٌ ممن يسمع ولا ينتفع، بلا شك.

فإذا قال لك قائل: كيف يقول الله لهؤلاء الأذكياء ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وما أشبه ذلك؟

نقول: لأنهم لم ينتفعوا بهذا العقل، فصار موجوداً كأنه معدوم.

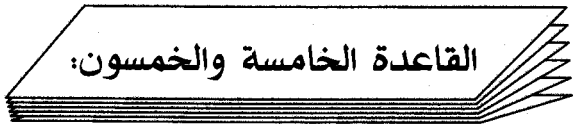

يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويُكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله، ويُكتب له ما نشأ عن عمله.

التعليق

ثلاثة أمور:

الأول: يُكتب للعبد عمله الذي باشره، وهذا واضح: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والثاني: يكمل له ما شرع فيه ولم يكمله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

والثالث: يُكتب له ما نشأ عن عمله: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

ويكتب له ما تركه لعذرٍ وكان يعمله، وهو الموضع الرابع، مثل إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

فهذه أربعة أمور كلها تُكتب للإنسان. أما مجرد النية، فإنها تُكتب للإنسان إذا تمنى العمل الصالح ولم يقدر عليه، يُكتب له أجر النية.

ومن ذلك ما أخبر به النبيّ عليه الصلاة والسلام، حين قسم الناس إلى أقسام؛ منهم: من آتاه الله مالاً، فينفقه في طاعة الله، فقال الآخر الذي لم يؤت المال: لو أن لي مِثْلَ ما لفلان لعملت فيه مِثْلَ ما عمل فلان. قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**فهو بنيته، فهما بالأجر سواء**»[1]، سواءٌ بالنية لا بالعمل؛ لأنه لم يعمل، وليس من عادته أن يعمله، فلو كان من عادته أن يعمله لكتب له ما تركه منه لعذر.

فإن قلت: أليس قد قال النبيّ ﷺ: «**إن في المدينة لأقواماً، ما سرتم مسيراً أو قطعتم وادياً إلا هم معكم**»[2]؟ قالوا: يا رسول الله، وهم في المدينة؟! قال: «**وهم في المدينة، حبسهم العذر**». فهذا يقتضي أنهم يشاركون في أجر العمل، أو ظاهره أنهم مشاركون في أجر العمل.

فالجواب: أن يحمل هذا على مَنْ كان مِن عادتهم الخروج في سبيل الله، ولكن حبسهم العذر؛ فهؤلاء يؤتون أجرهم كاملاً، أو يقال: «ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم»، يعني: بنيّتهم، فيكون لهم أجر النية، لا أجر العمل؛ فصارت الأقسام خمسة:

١ ـ من عمل عملاً كُتب له أجر.

٢ ـ ومن شرع فيه ولم يكمله كُتب له أجر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب النية (٤٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر عن الغزو (٢٦٨٤).

٣ ـ وما نشأ من عمله، وإن لم يكن على باله حين الفعل؛ كُتب له أجر.

٤ ـ وما كان يفعله وتركه لعذر، يكتب له أجر.

٥ ـ وما تمناه ولم يقدر عليه كتب له به أجر، ولكن أجر النية فقط لا أجر العمل.

والدليل على أنه أجر النية فقط، أن الفقراء لما جاؤوا للنبي ﷺ يشكون، قالوا: يا رسول الله، سبق أهل الدثور بالأُجور[1] والدرجات العلى، ثم ذكروا أنهم يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ فأخبرهم أن يسبِّحوا ويحمدوا ويكبِّروا ثلاثاً وثلاثين، دُبُر كل صلاة، وأنهم بذلك يدركون مَن سبقهم؛ فلما سمع الأغنياء بذلك عملوا مثله، فجاء الفقراء فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا الأغنياء بما صنعنا، وعملوا مثله؛ فقال لهم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولم يقل لهم: لكم أجرهم بنيّتكم، فهذا دليل على ما ذكرناه؛ لأن من تمنى العمل، وليس من عادته فعله، ولا يستطيع فعله، فإنه يكتب له أجره بالنيّة.

أما حديث: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**»[2]، فيدلّ على نقص دينها، ولكنه نقص لا تُلام عليه، ويكفيها أجر الامتثال؛

---

(١) أخرج البخاري في كتاب الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (٨٠٧)؛ ومسلم في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة (٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٢٩٨)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٧٩).

كالإنسان الذي ليس عنده مال، فإنه ينقص دينه لعدم الزكاة، ولا يحصل له الأجر لعدم وجود السبب.

فإن قيل: هي كانت تفعل الصلاة والعبادات؟

فالجواب: نعم، لكن لما وجد المانع، طغى على السبب، فزال أثره بالكلية؛ فليس لها أجر النية ولا العمل، ما لها إلا أجر الامتثال بترك الصلاة. والفرق بينها وبين المريض الذي كان من عادته العمل، أن هذه ـ والله أعلم ـ لما منعها الشرع ونهاها عن ذلك، صارت ليست محلاً للعمل الصالح؛ كالصوم يوم العيد، فلو صامه الإنسان لا يؤجر عليه، ولو تمنى أن يصومه لا يؤجر عليه، ولو نوى أنه يصومه ـ لولا المانع ـ لا يؤجر عليه، هذا هو الفرق.

❑ ❑ ❑

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن:

أما الأعمال التي باشرها العبد، فأكثر من أن تُحصى النصوص الدالّة عليها؛ كقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]، **ونحو ذلك.**

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها ولمّا يكملها، فقد دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، **فهذا خرج للهجرة وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأخبر تعالى أنه وقع أجره على الله؛ فكل من شرع في عمل من أعمال الخير ثم عجز عن إتمامه بموت، أو عجز بدني، أو عجز مالي، أو مانع داخلي أو خارجي، وكان من نيته لولا المانع**

لأتمَّه فقد وقع أجره على الله، فإنما الأعمال بالنيات، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]**، فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه؛ سواء أكمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.**

وأما آثار أعمال العبد، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي: باشروا عمله ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]**، التي ترتبت على أعمالهم من خير وشرّ...**

التعليق

ويدل على هذا قوله ﷺ: **«من سنّ في الإسلام سنةٌ حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ في الإسلام سنةٌ سيئةٌ كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»**[1]، فالإنسان يُكتب له آثار عمله، حتى وإن لم يقصدها؛ زرع رجلٌ زرعاً، أو غرس غرساً، فانتفع به من لم يخطر بباله أن ينتفع به فإنه يؤجر على ذلك، وإن كان لم يكن بباله حين غرس الغرس أو زرع الزرع، لكن لأنه نشأ عن عمله.

❑ ❑ ❑

... وقال في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٧).

يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فكل هذه الأمور من آثار عملهم. ثم ذكر أعمالهم التي باشروها، بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١٢١].

والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان؛ كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكمن يتزوج بغير نية حصول الأولاد الصالحين، فيعطيه الله أولاداً صالحين، فإنه ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني ـ وهو أشرف النوعين ـ: أن يقع ذلك بقصده، كمن علَّم علماً نافعاً؛ فنفس تعليمه ومباشرته له من أجلِّ الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتّب على ذلك فإنه من آثار عمله، وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج لأجل حصول الذرية الصالحين، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله. وكذلك من يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمور دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع، فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي على هذا العمل، فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله الأخير أجراً وعوضاً؛ فإن الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، ورامیه، والمُمِدّ له.

القاعدة السادسة والخمسون:

يرشد القرآن المسلمين إلى قيام جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يمكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقوم بها، ويوفر وقته عليها؛ لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية، فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها؛ فالطريق إلى حصولها: ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد ـ الذي هو من أعظم مصالح الدين ـ والعلم: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى، وأن القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت؛ وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالّات على هذ الأصل الجليل، والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها؛ لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائراً في جميع أعماله إليها، فلو وفّق المسلمون

لسلوك هذا الطريق لاستقامت أحوالهم، وصَلُحت أمورهم، وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان.

التعليق

وهكذا الأمة الواحدة كل طائفة منها تقوم بمصلحة؛ لأن قيام الجميع بوظيفةٍ ومصلحة واحدة متعذّر؛ إذ لو فرضنا أن الناس اتّجهوا جميعاً لمصلحةٍ واحدة معينة، لتعطلت المصالح الأخرى. وتركهم للمصالح كلية، أيضاً فساد. ولذلك نقول: يعتبر المؤمنون ـ وإن كانوا أفراداً متعددين ـ كأنهم جسد واحد؛ فالرِّجل للمشي، واليد للبطش. لو أن أحداً قال: سأجعل اليدين للمشي، والرِّجلين للبطش والأكل والشرب! طبعاً لا يمكن، كذلك الأصابع، كل أصبع له وظيفة خاصة يقوم بها، لا يمكن أن تجتمع الأصابع كلها على وظيفةٍ واحدة، ولا يمكن أن تتخلى عن الوظائف، هكذا هو الجسد الإسلامي وهكذا يجب أن يكون المسلمون، كل واحد يسعى في مصلحةٍ معينة تليق به؛ فمثلاً: الرجل ضعيف الجسم، قوي الفهم والذاكرة والحفظ، يكون طلب العلم له أفضل، والرجل القوي الجسم، لكنه بطيء الفهم والحفظ، تكرَّر عليه المسألة أربعين مرة ما يحفظها إلا في خمسين مرة، إلا أنه شجاع مقدام متمرس في الجهاد، فهذا أفضل له الجهاد في سبيل الله. والرجل الآخر عنده حنكة في الصناعة، أو في الطب، أو في الزراعة؛ نقول له: اتّجه لهذا، حتى تقوم الأُمّة الإسلامية بمقوماتها، فكلٌّ يقوم بما يدرك ويتقن ويختص به. هذا الذي ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ صحيح وقاعدة نافعة، وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ من القرآن أدلة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ

يحتمل أن يكون مستحيلاً شرعاً، أو مستحيلاً قدراً وكوناً، وأقلّ الأمرين أنه مستحيل شرعاً؛ لا يمكن أن يذهبوا جميعاً للجهاد، بل بعضهم يبقى للعلم، وبعضهم يذهب للجهاد، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وزّع الجهاد؛ فلا نقول: تخرج القبيلة الفلانية للجهاد، وبقية القبائل يبقون؛ بل نقول: من كل قبيلة، وفرقةٌ، منهم طائفة؛ نأخذ من بني تميم، من قريش، من كذا، من كذا، طائفة؛ ليبقى طائفة يتفقهون في الدين. وإذا تفقهوا في الدين، وحفظوا دين الله، جاءت الفرقة المجاهدة، فينذرون: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وعلى هذا، فالواو في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ في الدين، تعود على القاعدين. والله عز وجل قد جعل الجهاد في سبيل الله عديلاً للضرب في الأرض للتجارة، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، إلى آخره.

كذلك أيضاً الآية الثانية التي ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ، قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فقال: ﴿مِنكُمْ﴾ لا كلكم، وإن كان بعض العلماء يقولون: ﴿مِّنَ﴾ بيانية، أي: ولتكونوا على هذا الوصف؛ أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. لكن المعنى الأول هو الذي عليه معظم الناس، وهو أنه يجب أن تكون الأُمّة الإسلامية أُمة متفرغة لهذا الشيء؛ يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ومن المعلوم أن الدعوة إلى الخير لا بد أن يسبقها علم، وإلا كانت ضرراً؛ إذ إن الإنسان إذا دعا بدون علم، صار ضرره أكثر من نفعه غالباً. لا بدّ من العلم حتى يكون الإنسان داعياً إلى الله على بصيرة.

القاعدة السابعة والخمسون:

في كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية.

قد دعا الله عباده إلى التفكّر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آيات وعبراً؛ فينبغي لنا أن نسلك الطريق المنتج للمطلوب بأيسر ما يكون، وأوضح ما يكون، وحاصل ذلك على وجه الإجمال أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه، هذا أمرٌ بديهي؛ فتيقنّا أن الذي أوجده الأول الذي ليس قبله شيء، كامل القدرة، عظيم السلطان، واسع العلم، وأن إيجاد الآدميين في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وعرفنا بذلك أنه الحيّ القيوم،...

التعليق

كيف عرفنا أنه الحيّ القيُّوم؟ لأنه لولا حياته لم نوجد. والقيُّوم على وزن الفيعول، وهو من صِيَغ المبالغة، وهو القائم بنفسه، القائم على غيره. ووجه ذلك: أن السمٰوات والأرض دائماً تحتاج إلى من يقوم عليها، ولازم هذه الحاجة أن يكون الله تعالى قيُّوماً عليها دائماً ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

❑ ❑ ❑

... وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام، والإتقان، والحسن، والإبداع، عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه، وسعة علمه. وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية، التي لا تُعدّ ولا تُحصى؛ عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل، والبرّ، والإحسان، والجود، والامتنان. وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دالّ على إرادة الله، ونفوذ مشيئته، ونعرف من ذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه، وهذا شأنه، هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يُصرف خالص الدعاء إلا له؛ لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله في جميع شؤونها. ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خُلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها، وموادها، وأرواحها، قد مكَّن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها؛ عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يُصلح أحوالنا منها بحسب القدرة، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نضيف علم هذه الأمور واستخراجها إلى علوم باطلة بحجّة أن الكفار سبقوا إليها وفاقوا فيها، فإنها كلها ـ كما نبَّه الله عليه ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يعلِّم الإنسان ما لم يعلم.

التعليق

أما دلالة هذه المخلوقات على التوحيد، فمن جهتين:

الأولى: أن هذه الأشياء كلها لا تتم إلا بازدواج شيئين، قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وأن افتقار كل واحدة من هذه المخلوقات إلى شيء آخر لتقوم العناصر دليل على وحدانية من جعل هذه الأشياء مفتقر بعضها إلى بعض.

الثانية: أن هذه المخلوقات نظامها واحد، لا تضطرب ولا تتناقض، ولو كان لها خالقان، لكان هذا يخلق، أو يتصرف بمخلوقاته بشيء يضاد تصرف الآخر، وإذا نظرنا إلى انتظام الكون علمنا أن مدبره وخالقه واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم إن المؤلف استطرد في هذه القاعدة إلى أنه يجب علينا أن لا نخلد إلى الكسل والخمول، وعدم التأمل، وعدم استخراج منافع الأرض التي قال الله تعالى فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]. ولكن، مع الأسف، إن المسلمين أخلدوا إلى الكسل، وناموا، وأضاعوا أوقاتهم في حرب بعضهم بعضاً، وقتال بعضهم بعضاً، حتى سبقتهم الأُمم الكافرة، مع أنها تعمل هذا الشيء للدنيا فقط! ولو وُفِّق المسلمون للعمل بهذه الأشياء؛ لكانوا يعملونها للدنيا والآخرة، فهذه القاعدة مهمة عظيمة، وهي النظر في هذه المخلوقات العظيمة؛ من حيث الدلالة على خالقها، ووحدانيته، وما تتضمنه من أنواع صفاته؛ كالرحمة، والعلم، والحكمة، والقدرة وما إلى ذلك. والثاني: من جهة أنه ينبغي لنا أن نستعمل عقولنا وأفكارنا في استخراج منافعنا من هذه المخلوقات.

القاعدة الثامنة والخمسون:

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال.

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن، منها: لما أراد إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلَّمه أسماء كل شيء. ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها؛ فحينئذ نبّأهم آدم عنها فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالى إظهار شرف يوسف في سِعة العلم والتعبير؛ رأى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من لديه علم ومعرفة، فعجزوا عن معرفتها. ثم بعد ذلك عبّرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

التعليق

رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجاف، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات، ولم يذكر في السنبلات الأكل؛ لأن السنبل لا يأكل بعضه بعضاً، بخلاف البقر؛ فالذين يعبرون الرؤيا قالوا: لا نعرف، وقالوا: هذه أضغاث أحلام. وأما يوسف عليه السلام، فعبّرها تعبيراً عجيباً، فقال لهم: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ كلها ريف وخصب وزرع كامل، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا

مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، وإنما أرشدهم إلى إبقائه في سنبله؛ لأن الحَبَّ إذا بقي في سنبله لا يسوس. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، يعني: تحفظونه، وتحرزونه، وهذا يدل على أن الشيء عندهم شحيح، يتواصون بحفظه وتحصينه. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٩]؛ فهذه أربعة عشر عاماً. وإنما قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾؛ لأنه فهم ذلك من الحصر، سبع، وسبع، والعدد المحصور له منتهى؛ فصار الأمر كما ذكر عليه الصلاة والسلام.

❑ ❑ ❑

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سحَّار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم، وألقى السَّحرة عصيَّهم وحبالهم، في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السِّحر فـ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وصار أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبيّ ﷺ، وتمالأ عليه جميع أعدائه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به؛ نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوُّه الشديدُ حَرَدُه، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات، وأعظم

النكايات، وتخلصه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر؛ كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [التوبة: ٤٠]. وقريب من هذا نصره إياه يوم حُنين؛ حيث أعجبت الناس كثرتهم، فلم تُغنِ عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولَّوا مدبرين، وثبت ﷺ؛ فأنزل الله عليه سكينته ونصره في هذه الحالة الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبَّر عنه.

وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتدّ البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس؛ أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب، وليعرف العباد ألطاف علّام الغيوب.

ويقارب هذا المعنى: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليه من قبله مبلسين؛ فيحصل من آثار رحمة الله، والاستبشار بفضله ما يملأ القلوب حمداً وشكراً وثناءً على الباري تعالى.

وكذلك يذكّرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدّها؛ كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيات [القصص: ٧١]. وتَلْمَح على هذا المعنى قصة يعقوب وبنيه حين اشتدّت بهم الأزمة، ودخلوا على يوسف وقالوا:

قد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الآية [يوسف: ٨٨]. ثم بعد قليل قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، في تلك النعمة الواسعة، والعيش الرغيد، والعزّ المتين، والجاه العريض؛ فتبارك من لا يدرك العباد مِن ألطافه ودقيق برّه أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يُذكِّر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النِّعم لئلا تسترسل النفوس للجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفَّت عليها المصائب، وهان عليها حملها؛ كما ذكَّر الله المؤمنين حين أُصيبوا بأُحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أُحد ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ويبشر عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب؛ ليكون هذا الرجاء مُخَفِّفاً لما نزل من البلاء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وكذلك رؤيا يوسف إذا ذكرها يعقوب رجا الفرج، وهبَّ على قلبه نسيم الرجاء؛ ولهذا قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]. وكذلك قوله تعالى لأُمّ موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وأعظم من ذلك كله أنَّ وَعْدَ الله لرسله بالنصر، وتمام الأمر؛ هوَّن عليهم المشقات، وسهَّل عليهم الكريهات، فتلقّوها بقلوب مطمئنة، وصدور منشرحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

القاعدة التاسعة والخمسون:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

ما أعظم هذه القاعدة والأصل العظيم الذي نصّ الله عليه نصاً صريحاً، وعمّم ذلك ولم يقيِّده بحالة من الأحوال؛ فكل حال هي أقوم في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغار، والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها، ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحثّ عليها. ومعنى: «أقوم»، أي: أكمل، وأصلح، وأعظم قياماً وصلاحاً.

فأما العقائد: فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وغذاؤها وكمالها؛ فإنها تملأ القلوب محبة لله، وتعظيماً له، وأُلوهية وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعوا إليها: فإنه يدعوا إلى التحلِّي بكل خلق جميل؛ من الصبر، والحلم، والعفو، وحُسن الخلق، والأدب وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق، ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله، وحقوق العباد على أكمل الحالات، وأجلّها، وأسهلها، وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلى سلوك الطرق

النافعة في تحصيل المصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته، والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة العبد مع أولاده، وأهله، وخادمه، وأصحابه، ومعامليه؛ فلا يمكن أنه وُجد ويُوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم من غيرها وأصلح إلا والقرآن يرشد إليها نصاً، أو ظاهراً، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية، وتفصيل هذه القاعدة لا يمكن استيفاؤه.

وبالجملة، فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السنّة من الأوامر النواهي والإخبارات كلها تفصيل لهذا الأصل المحيط، وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح، أو معنى نافع، أو طريق صلاح ينافي القرآن، والله تعالى وليّ الإحسان.

التعليق

بهذه القاعدة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، يتبين لنا أن جميع القوانين المعارضة للقرآن كلها لا خير فيها، وأنه إن قدر فيها خير فما في القرآن خير، وأشدّ، وأثبت، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

والحاصل: أن كل ما كان أقوم في العقائد، والأعمال، والأقوال، والأخلاق، والسياسات، والمعاملات، والمتروكات، والمنهيات؛ فإن القرآن يهدي إليه. ونأخذ من هذا قواعد عظيمة:

منها: إذا تعارضت مصلحتان؛ إحداهما أنفع، أخذنا بالأنفع.

ومنها: إذا تعارضت مفسدتان؛ إحداهما أشدّ، أخذنا بالأخف. وعلى هذا فقِسْ؛ فكلما كان أقوم، كان القرآن يهدي إليه، والعكس بالعكس. فكلما كان أعوج وأردأ، وأسوأ، فإن القرآن لا يهدي إليه؛ بل يهدي إلى ضدِّه وعكسه.

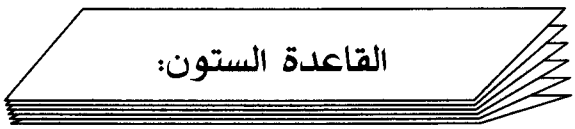

من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه: أن القصص المبسوطة يُجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، والأُمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتقرر فيه المطالب المهمة؛ وذلك أنه إذا أُجملت القصة بكلام كالأصل والقاعدة لها، ثم وقع التفصيل بعد ذلك الإجمال، وقع إيضاح وبيان تامّ كامل لا يقع ما يقاربه لو فصِّلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال، وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]، ثم ساق القصة بعدها.

وكذلك في قصة أهل الكهف، لما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢]، فهذا إجمالها قد حوى مقصودها وزُبدتها، ثم وقع بعده التفصيل بقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر القصة.

وكذلك في قصة موسى، لما قال تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٣ ـ ٦]، هذا مجملها، ثم وقع التفصيل.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فأجملها، ثم وقع بعده التفصيل.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمرٍ إلى ما هو أولى منه، فكثير:

منها: لما أنكر على من اتخذ مع الله إلهاً آخر، وزعم أن الله تعالى اتخذ ولداً؛ قال في إبطال هذا: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، فأبان أن قولهم هذا قول بلا علم. ومن المعلوم أن القول بلا علم من الطرق الباطلة؛ ثم ذكر قبحه، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، ثم ذكر مرتبة هذا القول من البطلان، فقال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وقال في حق المنكرين للبعث: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، أي: علمهم فيها علم ضعيف لا يُعتمد عليه، ثم ذكر ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾، ومن المعلوم أن الشك ليس معه من العلم شيء، ثم انتقل منه إلى قوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال نوح عليه السلام في تقرير رسالته عند من كذّبه وزعم أنه في ضلال مبين: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، فلما نفى الضلالة من كل وجه أثبت بعده الهدى الكامل من كل وجه، فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]. ثم انتقل إلى

ما هو أعلى من ذلك، وأن مادة هذا الهدى الذي جئتُ به من الوحي الذي هو أصل الهدى، ومنبعه، ومادته، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وكذلك هود عليه السلام.

وقال في تقرير رسالة أكمل الرسل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢]؛ فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إلى آخر الآيات [النجم: ٤]، **وهو في القرآن كثير جداً؛ كانتقاله من ذكر هبته الولد لزكريا إلى مريم، وأمر القبلة بعد تعظيمه للبيت، وغيرها.**

التعليق

هذه القاعدة تضمنت أمرين:

الإجمال، ثم التفصيل. وهذا من طرق البلاغة؛ لأن الإجمال أقرب إلى الحفظ وأوعى للذهن. ثم إن الإجمال إذا وقع بقيت النفس متشوفةً إلى التفصيل، فيرد عليها التفصيل وهي أحوج ما تكون إلى معرفته. وإذا ورد العلم على القلب، وهو محتاج إلى معرفته، مشتاقٌ إليه؛ رسخ فيه أكثر، وثبت فيه وتمكّن. هذا من فوائد التفصيل بعد الإجمال، وإلا فلو قال قائل: لماذا لا يذكر الشيء مفصلاً من أول الأمر؟ نقول: لو فعلنا ذلك لفاتنا هذان الأمران، وهما: أن التفصيل بعد الإجمال أثبت في القلب؛ لأنه يرد على القلب وهو متشوف له، ولأن الاختصار والإجمال أوعى للذهن، وأقرب للحفظ.

وأما الانتقال من حالٍ إلى أخرى، فهذا أيضاً ظاهر؛ لئلا ترد

المعاني على القلوب دفعةً واحدة، وإنما ترد عليها متنقلة مرحلةً مرحلة. ومن هذا أيضاً الأحكام؛ لأن الأشياء التي لا يستطيع الناس أن يأتوها دفعةً واحدة، يجعلها الله سبحانه وتعالى مرتبة شيئاً فشيئاً.

فمن المأمورات: الصلاة، والصيام، والزكاة، كلها لها مراتب؛ ففي الصلاة: كان في الأول يصلّونها بكرةً وعشياً، ثم صارت خمس صلوات، وفي الزكاة: كانوا يؤمرون بأن يؤتوا المال حقه ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] بدون تقدير، ثم قدرت. وفي الصيام: كان بالأول من شاء صام، ومن شاء افتدى، ثم تعين الصيام.

وفي المنهيات نجد أن الله جلّ وعلا في الأمور التي يصعب الامتناع عنها مرةً واحدة يجعلها مرتبة، مثل الخمر والميسر، فإن الناس كانوا قد عاشوا عليهما، فيصعب أو يشقّ عليهم أن يدعوها مرةً واحدة، فجعل الأمر مرتباً ينتقلون من حال إلى حال؛ ليسهل عليهم التنفيذ والفعل، أو الترك.

القاعدة الحادية والستون:

معرفة الأوقات وضبطها حث الله عليه حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص.

وذلك أن الله رتب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبط تلك المدة وإحصائها، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات، والصيام، والزكاة، وخصَّ الحج بالذِّكر لكثرة ما يترتّب عليه من الأوقات الخاصة والعامة، وكذلك مواقيت للعِدد، والديون، والإجارات وغيرها. وقال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]؛ وذلك لمعرفة قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب، وإحصاء المدة، مصلحة في الدين، أو في الدنيا؛ كان مما حث وأرشد إليه القرآن. ويقارب هذا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ إلى آخر الآيات [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، ونحوها من الآيات.

التعليق

في ضبط الأمور والأوقات مصلحة عظيمة أيضاً، سوى ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ، وهي أن الإنسان لا ينفرط عليه وقته؛ لأن الإنسان إذا أطلق نفسه وأهملها انفرط عليه الوقت. لكن إذا رتب وقته، حفظ وقته وضبطه، ولم يضع عليه منه شيء؛ فمثلاً لو قال: إذا صليت الفجر رتبت نفسي، ففعلت كذا وكذا، وبعد طلوع الشمس أفعل كذا وكذا، وفي اليوم الفلاني: أفعل كذا وكذا؛ ولهذا قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**أحب العمل إلى الله أدومه، وإنْ قلّ**»[1]، حتى لا يصير الإنسان منفرطاً في شغله، فيضيع عليه الوقت. وقد بيّن الله تعالى في القرآن إضاعة الوقت من حال مَن أغفل الله ذكره عن قلبه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]؛ فالذي ينبغي لك أيها الإنسان أن تضبط وقتك. وكل وقت له عمل معين، حتى لا تتداخل الأعمال، ولا يضيع عليك الوقت بلا فائدة. وذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ أمثلةً من هذا تدلّ على ضبط الوقت وعلى حفظه وحمايته.

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٨).

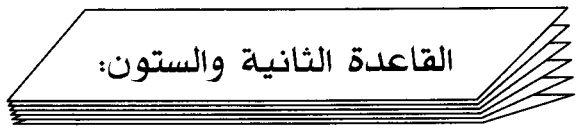

الصبر أكبر عون على كل الأمور، والإحاطة بالشيء علماً وخبراً هو الذي يعين على الصبر.

وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دلّ القرآن عليها صريحاً وظاهراً في أماكن كثيرة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، أي: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم؛ بالصبر، فإن الصبر يسهل على العبد القيام بوظيفة الطاعات، وأداء حقوق الله، وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلباً لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات، ولكن هذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها ولا يمكن وجوده بدونها هو معرفة الشيء المصبور عليه، وما فيه من الفضائل، وما يترتب عليه من الثمرات؛ فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب، وزيادة الإيمان، واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل، وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور، هان عليه الصبر على جميع ذلك.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل العمل والفضائل كلها؛ ولهذا كثيراً يذكر في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة إنما ذلك لقصور علمهم وعدم إحاطتهم التامّة بها، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، ليس معناه أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، إنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات، وأنواع المضرّات، وزوال المنافع.

وقال تعالى مبيناً أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما قال له موسى، وطلب منه أن يتبعه ليتعلم مما علّمه الله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧ ـ ٦٨]؛ فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر، ولو تجلّد ما تجلد، فلا بد وأن يُعال صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن، وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، فأبان أن الأعداء المكذبين به إنما تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه كما هو لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته. وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه، وخبروا صدقه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والمقصود أن الله أرشد العباد إلى الاستعانة على أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها، وما فيها من الفضائل أو الرذائل، والله أعلم.

التعليق

هذه القاعدة تشتمل على أمرين:

الأمر الأول: أن الصبر أكبر عون على الأمور، فإن الإنسان إذا صبر على الشيء كان ذلك عوناً له على إدراكه. ويذكر أن الكسائي، وهو إمام الكوفيين في النحو، صار يتعلم النحو، فعجز عنه. وفي يوم من الأيام رأى نملة تحمل قطعة من تمرة لتصعد بها الجدار، فكلما صعدت بهذه التمرة ثقلت عليها، ثم سقطت وإياها إلى الأرض! وهكذا عدة مرات، حتى صعدت بها، فقال: هذه النملة صابرت هذا الصبر، حتى حصل لها مقصودها، في غذاءٍ جسمي، فلماذا لا أصبر حتى أنال مقصودي في تعلم النحو؛ فصار يتعلم، حتى صار إماماً في النحو.

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يصبر على طلب العلم، وأن لا ييأس ويقول: هذا صعب عليّ! قد يصعب عليك لأول مرة ثم يسهل عليك، وتصير تقرأ الشيء وكأنه مشروحٌ لك من قبل، والصبر يحتاج إلى ما يعينك عليه، وهو معرفة ما للمصبور عليه، أو للمصبور عنه من النتائج، فإن كان شيئاً مطلوباً حصوله، فاعلم ما يترتب عليه من الثمرات والمنافع، والمصالح، وإن كان مطلوباً تركه. فاعلم ما يترتب على فعله من الشرور والسيئات، فهذا يعينك على الصبر.

والأمر الثاني: مما يعينك على الصبر في إدراك المطلوبات أن تقول لنفسك: أنت الآن قطعت شوطاً بعيداً للوصول إلى الغاية، ورجوعك من أثناء الطريق معناه إضاعة الوقت، وخسارة ما اكتسبت. بعض الناس مثلاً يحفظ ألفية ابن مالك، فإذا انتصف بها،

قال: هذه صعبة! وبقي عليّ نصفها، ثم تركها. فماذا حصل؟ ضيّع على نفسه الفرصة، وهذا لا شك أنه سفه.

فمما يُعين على الصبر معرفة المصبور عليه، وما يترتب عليه من النتائج والعواقب. والثاني: أنه إذا تخلى عن الصبر أضاع على نفسه شيئاً كثيراً اكتسبه.

أما الأمر الثالث: مما يعين على الصبر أن يرجو الإنسان بصبره ثواب الله عز وجل، فإن الله يقول: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فإذا عرف ما في الصبر، بغضّ النظر عن المصبور عليه، من الثواب والكرامة، فإنه يستمر على صبره ويتحمل.

والأمر الرابع: مما يعين على الصبر، أن الإنسان إذا صبر على الشيء، صار هذا الشيء كأنه غريزة في نفسه، حتى إنه ليتخلى إذا فقده. وانظر نفسك أيها الطالب، في أول السنة الدراسية، أول يوم، يومين، ثلاثة، تجد نفسك متعباً، مالّاً من طول الدروس، فإذا تمرنت عليها، سَهُل عليك وهان، حتى إنك تفقد الدروس عند حلول الإجازة، وهذا شيء مشاهد، ومثل هذه الأمور تُعين الإنسان على الصبر والتحمل، وعدم النكوص على العقبين، وأن يستمر على ما هو عليه. وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال: «من بورك له في شيءٍ، فليلزمه» هذه كلمة عظيمة! فلا تكن في كل يوم لك رأي ونظر، فإن هذا يذهب عليك الوقت.

القاعدة الثالثة والستون:

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان: إيمانه وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة، أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا، أو بالرياسات، كل ذلك من طرق المنحرفين.

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذه القاعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبأ: ٣٧]، **وقال تعالى:** ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، **وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة آيات.**

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين: فقال عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. **ثم ذكر البرهان الذي مَن أتى به، فهو المستحق للجنة، فقال:** ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. **وقال تعالى:** ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ **الآيات** [النساء: ١٢٣]، **وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، **ونحوها من الآيات التي يستدل بها**

الكفار على حسن حالهم بتفوّقهم في الأمور الدنيوية والرياسات، ويذمّون المؤمنين، ويستدلون على بطلان دينهم بنقصهم في هذه الأمور!! وهذا من أكبر مواضع الفتن.

التعليق

هنا ثلاثة أمور:

الأول: إيمان الإنسان وعمله الصالح، وهذا هو المقياس للرجل، وقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**إذا أتاكم مَن ترضون دينه وخلقه، فأنكحوه**»[1]، هذا هو المقياس الأول إذا كان مؤمناً عاملاً بالصالحات. هذا هو الدليل على كمال حاله، وحسن حاله.

الثاني: دعاوى مجردة يدّعيها الإنسان لنفسه، وهي بعيدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذه لا تدل على كمال حاله، وحسن حاله؛ لأن كل إنسان يستطيع أن يدّعي الكمال. ولكن إذا نظرنا إلى حاله، إذا هو مفارق للكمال! لا نقبل منه. ومن هذا دعاوى أولياء الشياطين أنهم أولياء الله، وأحبّاء الله، مثل ما يدّعي أولئك المخرفون، الذين يدّعون الولاية لأنفسهم، أنهم أولياء لله؛ ليجذبوا الناس إليهم.

الثالث: إعطاء الله الإنسان المال، والرئاسة، والجاه، والسمعة، هل تدل هذه على كماله؟ لا يلزم؛ قد يكون الأمر بالعكس! قد يُعطى الإنسان هذه الأمور ابتلاءً من الله عز وجل،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم مَن ترضون دينه فزوّجوه (١٠٨٤).

وامتحاناً له، فيتولى على الناس، ويكون له جاه عندهم ورئاسة، وما أشبه ذلك، وهذا لا يدل على حسن حاله حقيقةً.

فهذه أمور ثلاثة. وميزان هذه الأمور هو: الإيمان والعمل الصالح؛ فكمال الإنسان هو بالإيمان والعمل الصالح فقط. أما الرئاسات وما يتعلق بها من الدعاوى الباطلة، فهذه لا تدل على حسن حاله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، لا نقبل منهم هذه الدعوى. ولهذا ردّها الله عليهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]. أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] لا يقولون: لا نؤمن، ولكن يقولون: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فيقدحون في المؤمنين، فقال الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. وعلى هذا، فيجب أن ننظر إلى حال الإنسان، لا إلى دعواه الباطلة، ولا إلى ما أُوتي من مال، وولد، ورئاسة، وجاه، وما أشبه ذلك.

القاعدة الرابعة والستون:

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَرِدُ على الحق والأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتزول.

وهذه قاعدة شريفة جليلة، وقد وردت في عدة مواضع من القرآن؛ فمن لم يُحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما أوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة الله تعالى في ورودها على الحق الصريح لأسباب مزعجة تدفعها، أو لشُبه قوية تُحدثها، ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، فزهق الباطل، وثبت الحق؛ حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حِكَماً بالغة، وأيادي سابغة، ولنمثّل لهذا أمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيماناً، ويقيناً، وتصديقاً بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوا في الرسل أنهم قد بلغوا ذروته العليا، وأنهم معصومون من ضدّه، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض من الأمور المزعجة المنافية حساً لما عُلم يقيناً ما يوجب لهؤلاء الكُمَّل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولون: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقد يقع في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات، وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال،

ويصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير لا يحصل بدون هذه الحالة؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، فهذا الوارد الذي لا قرار له ـ ولما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى ـ لا ينكر ويُطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

التعليق

هذه الآية أشكلت على العلماء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، وفيها قراءة سبعية: (وظنوا أنهم قد كُذِّبوا)؛ فعلى قراءة التشديد؛ الأمر فيها واضح، يعني: تيقّنوا أنهم قد كذِّبوا، فأيسوا من التصديق، ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]. لكن الإشكال في قراءة: (كُذِبوا) ظاهر كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ؛ أنه ورد على قلوبهم أن وعدهم بالنصر ليس صحيحاً! ولكن يقول الشيخ: إن هذا وارد يضمحل ويتلاشى، وإنما لقوة الواردات على القلوب، ينسون صدق الوعد، فيظنون هذا الظن، هذا ما ذهب إليه شيخنا ـ رحمه الله ـ؛ إذ قال: كُذِبوا، أي: قد كُذبوا بوعد النصر، ومعنى ﴿كُذِبُواْ﴾: أخبروا بالكذب؛ كما جاء في الحديث: «**صدقك وهو كذوب**»[1]، وهذه لو بقيت لكانت مطعناً في الرسل أن يظنوا أن الله وعدهم فكذبهم. ولكن شيخنا يقول: إن هذا وارد يَرِد على القلوب، ويتلاشى بسرعة. وسبب

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل (٢١٨٧).

وروده على القلب قوة الواردات التي توجب مثل هذا الظن، ويقول شيخنا ـ رحمه الله ـ: إن هذا أحسن من تأويل الآيات بوجوه بعيدة.

وعندي أن الأمر ليس كما قال شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا، وأن معنى ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾، أي: كذبهم أقوامهم في قولهم إننا مؤمنون؛ لأنهم لو صدقوا في قولهم إنهم مؤمنون لجاءهم النصر؛ فيظن هؤلاء الرسل أنهم قد كذبوا، ليس بخبر الله، يعني: أن الله كذبهم حين أخبرهم بالنصر، ولكن قد كذبوا، أي: كذبهم أقوامهم بقولهم: إننا مؤمنون، وأنه تخلف النصر لعدم إيمان قومهم. وحينئذ ليس في الآية مشكل، تبقى الآية على ظاهرها بدون إشكال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، يعني: استبعدوا نصر الله، وظنّوا أنهم قد كذبوا من أقوامهم الذين قالوا: إنا مؤمنون، وإنا معكم؛ جاءهم نصرنا. وهذا المعنى الذي قلت: لا شك أنه أحسن مما ذهب إليه شيخنا ـ رحمه الله ـ. والواردات بلا شك تَرِد على الإنسان، ويغفل وينسى الحقيقة التي هي الواقع؛ ولهذا لما كسفت الشمس خرج النبيّ ﷺ فزعاً يظن أنها الساعة[1]، كما جاء في الحديث، وكيف يظن أنها الساعة، والساعة لها أشراط، ولها علامات لم تأت؟ لكن لقوة الوارد الذي ورد على قلبه نسي أن يكون للساعة أشراط تتقدّمها.

❑ ❑ ❑

ومن هذا الباب؛ بل من صريحه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]**، أي: يلقى من الشبه ما يعارض اليقين. ثم ذكر الحِكَم العظيمة المترتبة على**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف (١٠١٠)؛ ومسلم في كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف (٩١٢).

هذا الإلقاء، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يُبطل ما يُلقي الشيطان، ويُحكم آياته، والله عليم حكيم. فقد أخبر بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء لهذه الحِكَم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك معصومون، وظنّ أن هذا ينافي العصمة فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل قولاً خالف فيه الواقع، وخالف نص الآيات الكريمات.

التعليق

ومن هذا على أحد قولي المفسرين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤]، هذه الآية تنازع الناس فيها قديماً وحديثاً تنازعاً كبيراً؛ فمنهم من قال: إن الرسول ﷺ لما قرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠] قال حين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى! فسمع المشركون هذا الكلام من الرسول ﷺ، وسجدوا مع النبيّ ﷺ في آخر السورة. فقد سجد مع النبيّ ﷺ المؤمنون والمشركون والجنّ والإنس[1].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الجمعة عن رسول الله، باب ما جاء في السجدة في النجم، رقم (٥٢٤).

ومنهم مَن أنكر هذا، وقال: لا يمكن للرسول عليه الصلاة والسلام أن يثني على هذه الأصنام، ويقول: تلك الغرانيق العلى! وأنكروا إنكاراً عظيماً للآثار الواردة في هذا المعنى.

ولكن عند التأمل يمكن أن نقول: إن هذا الذي سُمع من الرسول عليه الصلاة والسلام، ليس هو قول الرسول، وإنما هو قول الشيطان؛ ألقاه فسمعه الناس، فظنّوا أنه قول الرسول، فقالوا: هكذا أثنى على أصنامنا، وعلى آلهتنا! وهو ـ في الواقع ـ ليس كلام الرسول؛ ولهذا قال: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، فلعل هذا من فعل الشيطان. وحينئذ، فلا حاجة إلى أن نبطل هذه الآثار الواردة.

ومنهم من قال: إن التمني في قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ هو أمنية القلب، وليس القراءة؛ يعني: أن الرسول، أو النبيّ يتمنى، ولكن الشيطان يفسد عليه أمنيته، ويحول بينه وبينها، وهذا ضعيف.

ومنهم من قال: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾، أي: قرأ؛ ألقى الشيطان في أمنيته، باعتبار مَن سمعوا هذه القراءة، فيلقي في قلوب أناس شكاً وشبهة، ويلقي في قلوب الآخرين يقيناً وثباتاً، ﴿... فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، فيكون هذا الإلقاء ما يلقيه الشيطان في قلب السامع من شبهات حول القرآن، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته. لكن سياق الآيات يدل على أن الذي يلقيه الشيطان في أمنيته قولٌ يسمع، فيُظنّ أنه القرآن. ثم بعد ذلك ينسخ الله هذا القول، ويبين بطلانه، ويحكم الله آياته. والنسخ معناه

هنا: أن ينسيهم إياه حتى لا يكون له أثر، ويكون هذا القول فتنة للذين في قلوبهم مرض، وأما الذين أوتوا العلم، فإنهم يعلمون أنه ليس بشيء، وليس صواباً.

وقد رويت قصة الغرانيق بطرق ضعيفة، وبعضهم ينكرها إنكاراً عظيماً، حتى عنون بعضهم في الكتب التي ألفها «نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق». ونحن نقول: وليكن هذا ضعيفاً، لكن الشيطان يلقي في القراءة، سواء الغرانيق أو غيرها. والذين ضعفوه ظنوا أن هذا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو ليس من قول الرسول، بل يلقيه الشيطان بصوت الشيطان، مقلداً لصوت النبيّ ﷺ.

وعلى كل حال، هي لا تضر، سواء صحت أو لم تصح، ما دام أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته؛ فليس فيه إشكال. ثم إن الآية صريحة أن الشيطان هو الذي يلقيها، وليس الرسول يتلوها؛ ما قال: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى قال في أمنيته كذا وكذا، بل قال: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

❑ ❑ ❑

ومن هذا ـ على أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]**، وأنه ظنٌّ عرض في الحال ثم زال؛ نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين تَرِدُ قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها؛ ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم مبشراً لهم: «الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»[(١)]، ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٥)، وأبو داود في الأدب، باب في رد الوسوسة، حديث رقم (٥٠٩٠) (١٤/ ١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الإيمان لقوة وارد من شهوة، أو غضب، وأن المؤمن كامل الإيمان قد يَرِدُ في قلبه هَمٌّ وإرادة لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب، ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض. ومن هذا قوله تعالى عن يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله، وخوفه، ورجائه؛ دفع عنه هذا الهمّ، واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يُرضي ربه؛ ولهذا بعد المعالجة الشديدة التي لا يصبر عليها إلا الخوّاص من الخلق، قال ﷺ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ الآية [يوسف ٣٣]. وكان أحد السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله(١)...

التعليق

هذا الذي ذهب إليه الشيخ ـ رحمه الله ـ هو الصواب في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]؛ لأنها امرأة مدلّلة، امرأة الملك، عليها من الحلي، والثياب، والجمال، والبهاء، ما يوجب تعلق النفس بها؛ فدعته في موضع لا يطلع عليهما إلا الله؛ لأنها أغلقت الأبواب، ولم يبق معه إلا هذه المرأة؛ دعته إلى نفسها وهو شاب فيه ما في الرجال، فـ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أيضاً، لكن منعه أنه رأى برهان ربه؛ رجع إلى نفسه ورأى ما معه من اليقين، ونور الإيمان، فامتنع.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، حديث رقم (٦٦٠) (٢/ ١٤٣). ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (١٠٣١) (٢/ ١٨٥).

وهذا لا يضرّ يوسف عليه السلام، بل لا يزيده إلا رتبة وفضلاً؛ لأنه إذا كان في هذه الحال التي وجد السبب فيها وانتفى المانع، ثم بعد ذلك تركه لله؛ صار أعظم منزلة وأعلى درجة ممن لم يكن له همّ بها، فهو إذا لم يهم بها لم يكترث، لكن إذا همَّ بها، ثم بعد ذلك رجع وتركها لله عز وجل؛ صار هذا أعظم، فهذا مدح وثناء ليوسف.

وأما من قال: لأن معنى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: بضربها، فهذا من أفسد الأقوال؛ لأنه إذا كان ضربها حقاً، فإن برهان ربّه لا يصرفه عنه، وإن كان باطلاً، فمعنى ذلك أنها فعلت ما لا تستحق الضرب عليه، فهذا التفسير، لا شك أنه باطل، وأن المعنى ما ذهب إليه شيخنا وكذا شيخ الإسلام رحمهما الله، أن الهمَّ حقيقي.

وهذا البرهان الذي رآه، قال بعضهم: إنه رأى أباه يعقوب يعضّ يديه وأنامله، يقول له: لا تفعل! وهذا أيضاً باطل؛ لأن الأب لا يسمى برهاناً، ولكن البرهان ما معه من الإيمان والعلم بالله سبحانه وتعالى والخوف منه، وهذا هو الذي منعه.

والحاصل: أن مثل هذه العوارض ـ كما قال شيخنا رحمه الله ـ لا تؤثر على الأمور الثوابت الراسخة؛ لأنها عوارض تأتي وتزول. قد يعرض على القلب، ولا سيما قلوب المؤمنين، شيء من الشك والجحود والكفر، ولكن كل هذا يزول مع الإيمان. حتى إنه يصور للرجل إذا قام يصلي كأنما يصلي لأبيه، أو لأخيه، أو لمعلمه، أو ما أشبه ذلك، ولكن هذا كله يزول بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والانتهاء عنه.

❑ ❑ ❑

... وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان، والذي يعرض في إرادته، فإذا مسَّهم تذكروا ما يجب من يقين الإيمان، ومن واجباته؛ فأبصروا، فرجع الشيطان خاسئاً وهو حسير. ولعل من هذا قول لوط عليه السلام: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]، وقول النبيّ ﷺ: «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»[1]، يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط ﷺ تلك الحال الحرجة، والنظر للأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

التعليق

لوط عليه السلام قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]، يعني: إلى قوم يمنعوني، ويعصموني، ويعينوني. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»**[1]، وهو الله عز وجل، لكنه في تلك الحال الحرجة ـ كما قال شيخنا رحمه الله ـ غاب عنه ما سوى الأسباب الحسية، وهو القرابة، والقوم الذين يحمونه ويمنعونه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ (٣١٩٢)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب (١٥١).

القاعدة الخامسة والستون:

قد أرشد القرآن إلى منع الأمر المباح إذا كان يفضي إلى محرَّم أو ترك واجب.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد».

التعليق

إذا كان المباح يفضي إلى المحرم كان حراماً، وإذا كان يفضي إلى واجب كان واجباً؛ فتجري فيه الأحكام الخمسة. ويقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: وهذه القاعدة من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد»، يعني: ما كان وسيلة للشيء فله حكم ذلك الشيء، فالوسيلة للواجب واجبة، ومثاله: الوضوء للصلاة واجب، فإذا لم يمكن الوضوء إلا بشراء الماء، كان شراء الماء واجباً. وما كان وسيلةً للمحرم، كان حراماً؛ مثاله: لو أن شخصاً جاء يشتري وعاءً للخمر، قلنا: البيع عليه حرام. والقاعدة الثانية: «ما لم يتم الواجب إلا به، فهو واجب». لكن قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد» أعمّ. وعلى هذا تكون هي القاعدة المعتبرة.

❑ ❑ ❑

فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، **وقوله تعالى:** ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ

لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. **وقد ورد بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير؛ فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، إن توسّل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأموراً بها، وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب كانت محرمة منهياً عنها، وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.**

التعليق

الأمثلة واضحة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، الأصل في سبّ آلهة المشركين الإباحة، بل قد يجب، فإذا كان يؤدي إلى سبِّ الله عز وجل، وهو منزَّه عن ذلك جل وعلا ـ بخلاف آلهتهم ـ كان محرماً.

والضرب بالرِّجل، الأصل فيه الإباحة، فإذا كانت المرأة تضرب برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها؛ صار حراماً. فلا يجوز للمرأة أن تبدي شيئاً من حليها؛ لأنه قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، مع أنها تُعلم ولا تُرى. فكيف إذا لبست المرأة حلياً جذاباً، في ذراعيها، أو في ساقيها، وأخرجت ذلك للناس! فإنه يكون أشدّ تحريماً.

ثالثاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، والأصل في البيع والشراء أنه حلال مباح، فإذا كان يؤدي إلى ترك واجب، وهو صلاة الجمعة؛ كان

حراماً، فعقد البيع باطل؛ لأنه منهي عنه بخصوصه بعد الأذان الثاني، الذي عند مجيء الإمام لصلاة الجمعة؛ لأنه هو المعروف المعهود عند نزول الآية، فتحمل الآية عليه، وهل يبطل سائر العقود كالنكاح؟

يقول بعض العلماء: إنه لا يبطل؛ لأنه ليس بيعاً، والله جل وعلا إنما نهى عن البيع. ولكن قال بعض العلماء: إنما نهى عن البيع؛ لأنه هو الأكثر والمعتاد، ولأنه هو السبب الذي جعل الصحابة يخرجون من عند الرسول ﷺ ليتلقوا هذه التجارة، فيكون ذكر البيع ليس من باب التخصيص، ولكن من باب ذكر الغالب، وأن كل ما ألهى عن ذكر الله، وعن حضور الصلاة، فإنه يقع باطلاً.

وقد يترجح القول الأول، وهو التخصيص بالبيع؛ لأنه هو الذي قد يَرِد غالباً، لو أنك فكرت في معاملات الناس لوجدت البيع يقع كثيراً في هذا الوقت، وعقد النكاح قليل نادر، وإلا فربما يكون الانشغال بعقد النكاح أشدّ من الانشغال بالبيع. وعلى كل حال الأمر فيه سعة؛ نقول: بدل أن يعقد في هذا الوقت فليؤخر، والمشهور من المذهب عند الحنابلة: يصح النكاح وسائر العقود ما عدا البيع وما في معناه؛ كالإجارة. أما النكاح وبقية العقود، فتصح. وعللوا ذلك بأنها نادرة، والنادر لا حكم له، وفيه وجه آخر في المذهب: أن النكاح وسائر العقود لا تصح؛ لأن العلّة الموجودة في النهي عن البيع، موجودة في هذه العقود.

القاعدة السادسة والستون:

من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات.

وهذه قاعدة جليلة، فإن أكثر الناس يقصر نظره على نفس اللفظ الدالّ على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت صدور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلى الأمرين، ويعرف أن هذا لهذا، وهذا ملازم لهذا، وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل؛ ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر؛ فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمٰن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذلك صادر عن وقارهم، وسكينتهم، وخشوعهم، وعن حلمهم الواسع، وخُلقهم الكامل، وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين.

ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، يدل مع ذلك على حسن إدارة المُلك، وكمال السياسة، وحسن النظام...

التعليق

يعني: كل في عمله الخاص، وهذا لا شك دليل على حسن إدارة الملك؛ لأننا لو جعلنا الأعمال كلها عند طائفة واحدة، أو عند شخص واحد؛ لانهارت أعصابه، وعجز عن تدبير الملك، فإذا

وزعت، وقال: هذا على المال، وهذا على السياسة، وهذا على كذا، فهو خير.

❑ ❑ ❑

... **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، **يدل على حُسن الخُلق، ونزاهة النفس عن الأخلاق الرذيلة، وعلى سعة عقولهم، وقوة حلمهم واحتمالهم. ومثل الإخبار عن أهل الجاهلية بتقتيل أولادهم خشية الفقر، أو من الإملاق؛ يدل على شدة هلعهم، وسوء ظنّهم بربّهم، وعدم ثقتهم بكفايته. وكذلك قوله عن أعداء رسوله:** ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]؛ **يدلّ على سوء ظنهم بالله، وأن الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته. وأمثلة هذا الأصل كثيرة واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.**

التعليق

معنى هذه القاعدة: أن الأفعال والأقوال إذا صدرت من شخص استدلّ بها على حاله، كمالاً كان أو نقصاً. فإذا وجدنا هذا الرجل، ـ مثلاً ـ متأنياً في أموره، متدبّراً لما يقول وما يفعل، استدللنا بذلك على كمال عقله، ووفور ذهنه. وإذا رأينا الأمر بالعكس، استدللنا على سوء عقله وتدبيره؛ فيستدل بالآثار على المؤثر. هذا هو الخلاصة: آثار الشيء يستدل بها على مؤثرها.

القاعدة السابعة والستون:

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق عند ورود الشبهات والتوهمات.

وهذه قاعدة جليلة يعبّر عنها: «أن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المتيقن» ونحوها من العبارات. وقد أرشد الله إليها في مواضع كثيرة لما أخبر تعالى عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المشتبهات؛ أنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فالأمور المحكمة المعلومة يتعين أن يرجع إليها الأمور المشتبهة المظنونة. وقال تعالى في زجر المؤمنين عن القدح في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأمرهم بالرجوع إلى ما عُلم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام من تكلم مما يناقضه ويقدح فيه. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله فيه من آذاه؛ لأنه لا يكون وجيهاً عند ربّه حتى يسلم من جميع المنقصات، ويتحلّى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أُولي العزم، فيحذر الله هذه الأُمة أن يسلكوا مسلك من آذى موسى مع وجاهته، فيؤذوا أعظم الرسل جاهاً عند الله، وأرفعهم مقاماً ودرجة. وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

القاعدة الثامنة والستون:

ذِكْر الأوصاف المتقابلات يغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلوماً.

وهذه القاعدة في القرآن كثير، يذكرها في المقامات المهمة؛ كالمقابلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وبين إلٰهيته الحق وإلٰهية ما سواه، فيذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها، ويدع التصريح بالمفاضلة إلى العقلاء، قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ **والآيات التي بعدها** [النمل: ٥٩ ـ ٦٠]، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]، ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، **وقال تعالى:** ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، **وقال مثلها:** ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، **فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة لعلمه من المقام؛ فقوله:** ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] **إلى آخرها، يعني: كمن ليس كذلك. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب؛ كقوله:** ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]،

ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي، وما يدعو إليه، وأعظم الناس معارضةً له؛ قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، **﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾** [القلم: ٥ ـ ٦]، **﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾** [البقرة: ٢٥٦]، **﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾** [الكهف: ٢٩]؛ **وذلك أنه إذا مُيِّزتَ الأشياء تمييزاً تماماً، وعُرفت مراتبها في الخير والشرّ، والكمال والنقص؛ صار التصريح بعد ذلك بالتفضيل لا معنى له، والله أعلم.**

التعليق

السؤال عن الشيء المعلوم لا حاجة إلى أن يجاب عنه: **﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**، معلوم أن الله خير! **﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾** [النمل: ٦٠] إلى آخره. وهكذا، فالشيء المعلوم لو ذكر؛ لكان الكلام فيه لغواً لا فائدة منه. **﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾**، يعني: كمن هو غافل، لا يقنت في الليل ولا في النهار، على الوصف الذي ذكره الله تعالى. وهكذا، فإن الشيء المعلوم يُغني عنه ذكر ما يقابله مما هو معلوم أنه خير أو شر.

القاعدة التاسعة والستون:

من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة:

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأوّلين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله، فعوَّضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعزّ والتمكين. وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهَبَ له إسحاق ويعقوب، والذريّة الصالحين. وسليمان ﷺ لما ألهته الخيل عن ذكر ربّه فأتلفها عوّضه الله: ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦]، ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧].

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله وهب لهم من رحمته، وهيّأ لهم أسباب التوفيق والراحة، وجعلهم هداية للضالين.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى؛ عوَّضه من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق جميع لذّات الدنيا.

التعليق

هذا شيء مشاهد؛ أن الإنسان إذا ترك محارم الله عز وجل، خوفاً منه سبحانه وتعالى، ورغبةً فيما عنده من الثواب، فإنه يجد في

قلبه لذةً وحلاوة، وحباً للخير، لا يمكن أن يوصف. وإذا انغمس الإنسان في شهواته، وفي لهوه وغفلته؛ صارت هذه الشهوات، والغفلة، والله، حسرةً عليه، وتجده يكون منقبضاً، إذا فارق هذه الشهوات طرفة عين.

إبراهيم عليه السلام، لما استسلم لذبح ابنه، وهو أحبّ شيء إليه في الدنيا، ورَّثه الله جلّ وعلا الخلة، فاتخذه خليلاً.

وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]. قال العلماء والمفسرون من السلف: معناه: أنه صار يضرب رقابها وأرجلها. السوق: جمع ساق، والأعناق واضحة؛ وذلك أنه غضب لله عز وجل، على نفسه، وحرم نفسه هذا الأمر الذي ألْهته به عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

وإتلاف المال للمصلحة جائز، مثاله: إتلاف المال للنكاية، فالغال من الغنيمة يحرق رحله! ولا يجعل مع الغنيمة؛ لأنه أنكى. وإلا لقلنا: كل العقوبة بالمال تنسخ! ولكن نقول: ما يترتب على إتلافه من المصالح أكثر من كونه مالاً.

ولكن هل من المشروع لنا إذا ألهانا شيء عن ذكر الله أن نتلفه؟ نعم، لا مانع أن نتلفه لأجل تعزير النفس وردعها، حتى لو كان هذا الشيء من بهيمة الأنعام؛ لأن ضررها عليك.

والزوجة إذا ألهته عن الصلاة هل يشرع أن يطلقها؟ ينظر في هذا؛ وإلّا، لا شك أنها إذا ألهته عن طاعة الله، أن هذا من شؤم المرأة، أن تكون سبباً لإلهاء الإنسان عن طاعة الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فبيَّن الله سبحانه وتعالى، أن من أزواجنا مَن يكون عدواً لنا، ويحذرنا من ذلك. وهذا هو الواقع، تجد بعض النساء تطلب من زوجها أن يذهب بها إلى السينما، وأن يسافر بها إلى الخارج، وأن يمكّنها من رؤية النساء الكاسيات العاريات، وما أشبه ذلك. وبعض الناس ـ والعياذ بالله ـ ليس له إلا الشهوة فقط، فهذه المرأة محل شهوته، لا يهمه أن يأتي بكل ما تريد، فيبطل رجولته عند وجود شهوته.

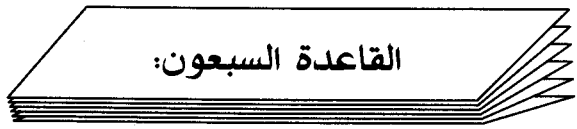

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين، ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه.

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجَّة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية؛ ما يدلّ على هذا الأصل، ويُعَرِّف الخلق أن العصمة من الشرور كلها التمسك بهذا القرآن، وأصوله، وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وأعماله؛ ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشر والفساد نوعان:

أحدهما: المبطلون في عقائدهم، وأديانهم، ومذاهبهم، الذين يدعون إليها؛ ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء، وإقامة الحجج والبراهين على فساد أقوالهم شيء كثير، لا يأتي مبطل بقول إلا في القرآن بيانه بالحق الواضح، والبرهان الجلي؛ ففيه الردّ على جميع المبطلين من الدهريين، والماديين، والمعطِّلين، والمشركين، والمتمسِّكين بالأديان المبدّلة والمنسوخة من اليهود، والنصارى، والأميين، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يذكر الله حجج هؤلاء وينقضها، ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذه الجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني من المقاومين للأديان، والدنيا، والسياسيات، والحقوق: الشيوعيون الذين انتشر شرّهم، وتفاقم أمرهم، وسَرَت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم، ولم يكن عند الأكثرين ما يردّ صولتهم، ويقمع شرّهم، وإنما عندهم من الأصول، والعقائد، والأخلاق والسياسات ما يمكِّن أمثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد، ولكن ـ ولله الحمد ـ القرآن العظيم، والدين القويم، قد تكفَّل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم، وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردّهم على أعقابهم منهزمين؛ فما فيه من العدل، ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم، وما فيه من إيجاب الزكاة، والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمضطرين، ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية، ووجوب حفظ الأملاك والحقوق؛ كل هذا أعظم سدّ، وأحكم حصن، للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين، وكذلك ما حضّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية، والأخلاق السامية، والأخوة الدينية، والرابطة الإسلامية يمنع من تغلغل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق، وانحلال الآداب، وتحلل الروابط النافعة، والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون؛ فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية، والتسلط على العباد بالقهر، والاستعباد، والطمع، والجشع، فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج، المخرِّب، المدمِّر ما مرّ عليه؛ فما معهم سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تجابه قوتهم؛ لكونهم لم يتمسَّكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية، والصلاح والإصلاح، والعدل، ودفع الظلم، والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب؛

بل تقذف بالحق على الباطل، فتدمغه فإذا هو زاهق، فإذا جاء هؤلاء المفسدين بالتعطيل المحض، والإنكار الصِّرف أبدى القرآن من الحجج والبراهين على وجود الله، وعظمته، وتوحيده، وصدقه وصدق من جاء به ما تصدَّع له الجبال، وتخضع له فحول الرجال، وإذا تسرَّب هؤلاء الأشرار بتوسط الأخلاق الرذيلة، وانحلال الآداب الجميلة، ووجدوا مسلكاً في هذا الطريق يُعينهم على تنفيذ باطلهم؛ جاءهم هذا القرآن بالحثّ على الأخلاق العالية، والأعمال الصالحة، والآداب الجميلة، التي لا تدع للشر على صاحبها سبيلاً. وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة، واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة، واستعبادهم للعباد، واستبدادهم بالأملاك والأموال، ولم يجد هؤلاء قوة عليهم، وليس بهم طاقة بوجهٍ من الوجوه؛ تصدَّى هذا القرآن العظيم بعدله وقسطه، وإيجابه الحقوق المتنوّعة ـ الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات ـ لصدّهم، ومقاومتهم، وإبطال كل ما به يصولون ويجولون. ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم، ونظامه الحكيم، وهَدْيه القويم، وحثّه على سلوك الصراط المستقيم، ونوره الساطع، وحججه القواطع؛ لم يبق في وجهه باطل إلا محقه، ولا شرّ إلا سحقه، ولا بقي مَن قَصْدُه الحق والصواب إلا اختاره واعتنقه، ولا تأمّله صاحب عقل ورأي إلا خضع له، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القاهر لكل من قاومه في كل الأمور.

القاعدة الحادية والسبعون:

في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني.

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود في وضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك التي ترجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها، فإنها ترجع إلى أصلٍ واحد، وقاعدة كليه.

وأما نفس ألفاظ القرآن الكريم، فإن كثيراً منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أُعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً؛ ولنمثل لهذا النوع أمثلة، ونذكر أنموذجاً منه: فمنها قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ **الآية** [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ **الآيات** [الرعد: ٢١]، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

[الحج: ٧٨]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فهذه الآيات الكريمة وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كبير، تحتوي على معانٍ كثيرة وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه، ولله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وقد يسَّر الله ما مَنَّ علينا بجمعه، فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتاباً يسُر الناظرين، ويُعين على فهم كلام ربّ العالمين، ويبدي لأهل البصائر والعلم من المآخذ، والمسالك، والطرق والأصول النافعة؛ ما لا يجده مجموعاً في محلٍّ واحد، ومَخْبَرُ الكتاب يغني عن وصفه، وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مقرِّباً لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه، وقارئه، والناظر فيه، وجميع المسلمين بمنِّه وكرمه، وجوده وإحسانه، وهو خير الراحمين، وصلَّى الله على محمد، وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله: عبد الرحمٰن بن ناصر العبد الله السعدي، وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥هـ، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

التعليق

انتهينا من دروس القراءة في كتاب شيخنا العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ، ونرجو أن نكون قد استفدنا، والكتاب جدير بالعناية، والشرح الوافي؛ لما فيه من فائدة كبيرة لطلاب العلم.

والحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

محمد بن صالح العثيمين

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة اللجنة	٥
مقدمة فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح ابن عثيمين بخطه	٧
صورة من مخطوطات الكتاب	٨
مقدمة المؤلف رحمه الله	١١
التعليق: القصد من ثناء المؤلف على كتابه	١٢
القاعدة الأولى: في كيفية تلقي التفسير	١٥
التعليق: معرفة الطريقة التي توصلنا إلى القرآن والاهتداء به	١٦
القاعدة الثانية: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب	١٨
التعليق: الأصل أن العام شامل لجميع أفراده إما بالعموم اللفظي أو العموم المعنوي	١٨
القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه	٢٠
التعليق: الحكم إذا علق على وصف ازداد بزيادة ذلك الوصف ونقص بنقصه	٢٠
مثال اسم الجنس	٢١
اعتبار هذه القاعدة في الأسماء الحسنى	٢١
التعليق: الأحكام شرعية وكونية	٢٢
التعليق: علم الله بالمستحيلات ومثاله	٢٢
الفائدة من اعتبار هذه القاعدة في أسمائه تعالى	٢٣
أمثلة لهذه القاعدة: في البر والتقوى والإثم والعدوان	٢٣
التعليق: أن المفرد المحلى بـ أل يعم سواء دخل على وصف أو اسم جنس	٢٤